نوبل 2006 للأدب التركي من خلال اورهان باموك:

اعتراف برحلة خمسين عاما من البحث عن روح تركيا الضائعة وصورة مدينته الكئيبة

ابراهيم درويش*

■ اورهان باموك يستحق جائزة نوبل، على الرغم من الظلال السياسية التي ستساق في معرض تقييم اسباب منح الجائزة لهذا الكاتب التركي، وان كان استحقاقا للرواية التي كتبها او استحقاقا للسياسة التي لا يفصل بينهما، او ليس لانه حاول فتح ملفات تظل في السياق التركي/ العثماني من الامور الحساسة والمتفجرة، الاكراد او العلاقة التركية – الارمنية، التي تحاول فرنسا نفض الغبار عنها وتحويل من ينكر ذبح الارمن عام 1916 الى جريمة يعاقب عليها القانون.

استحقاق باموك ينبع من انجازه الروائي الذي تجاوز انجازات كتاب كبار في الادب التركي من عزيز نسين ويشار كمال، ولانه اكثر الاصوات «طزاجة» في الادب التركي، ولانه ساءل روح تركيا الحديثة، تركيا التي ولدت من رحم الدولة العثمانية التي افلت عنها الشمس، تركيا الاتاتوركية التي ظلت تبحث عن هويتها المعلقة بين الشرق والغرب، وتحمل في داخلها اصداء من الزمن العثماني والزمن الجديد الذي اراد الفرار من هذا «الكابوس» القديم واجتراح زمن جديد اكثر اوروبية وعصرية وحداثة.

وهذا على ما يبدو كان واحدا من الاسباب التي جعلت الاكاديمية السويدية تمنحه جائزة نوبل لهذا العام، حيث قالت في بيانها ان باموك اكتشف «في بحثه عن روح مدينته الكئيبة رموزا لتصادم وتآلف الحضارات»، واعتبرت الاكاديمية الرواية الثالثة «القلعة البيضاء» من اجل اعماله لانها تبحث في علاقة رقيق من مدينة البندقية، والشاب، سيده الذي اشتراه، ويقوم باموك بالبحث عن النتوءات والتشوهات في داخل كل منهما، العبد وسيده. وتبدو فكرة الهوية، معادلها او حتى بديلها من الهموم التي تشغل هذا الكاتب الذي برأته محكمة تركية العام الماضي من «اهانة الهوية التركية»، ففي رواية «الكتاب الاسود» يبحث البطل الرئيسي في الرواية في مدينة اسطنبول عن زوجته واخيها من اجل تبادل هويته معه، وفي روايته الرائعة «ثلج» نلاحظ ذلك التشابه والتبادل لحد انفصام الشخصية بين البطل الذي يلبس معطفا بلون الفحم، ولا يقاوم مشاهدة الافلام الجنسية ويحن في الوقت نفسه للدين، القرآن. في «ثلج» لا نعرف ان كان السارد هو نفسه المؤلف مما يشير لانفصام في الشخصية بين الراوي/ البطل والمؤلف.

ووجه هذا التساؤل ان الراوي يشترك مع المؤلف في الكثير من الصفات، فهو ابن طبقة برجوازية، تركي، علماني منفتح على العالم، كاتب مهتم بالادب والكتابة الجمالية، ولديهما نفس الذوق فيما يتعلق بالنساء، والتشابه لا يقف عند هذا الحد، بل ان السارد والكاتب يشتركان في مؤلف هو «ثلج» فالرواية هي عن الرواية.

في الرواية «كا» هو البطل الحقيقي والكاتب الذي لم يكتب رواية منذ اعوام ولكن كا ليس البطل الحقيقي، فالذي يقوم بالسرد هو «صديق قديم» واسمه هو اورهان، وتدور احداث الرواية في التسعينات من القرن الماضي، وتحاول تحليل فكرة العنف، الاضطهاد، الغضب والتآمر، وهي مثل بقية اعمال باموك تحاول مساءلة الروح التركية وبعمق. تبدأ الرواية بعودة «كا» من منفاه الالماني وذلك للمشاركة في جنازة امه، ومن اسطنبول يتوجه نحو مدينة «كارز» في الاناضول ويختفي «كا» بزي صحافي يظهر اهتماما بالتحقيق في جريمة اغتيال عمدة المدينة، وحالات انتحار شابات اجبرن في المدارس على نزع الحجاب، ولكن كا لديه هدف آخر وهو مقابلة ابيك الجميلة التي انفصلت عن صديقه القديم الذي اصبح اسلاميا وسياسيا، وتعيش ايبك في فندق عتيق هو «فندق قصر الثلج» وهو الذي كان قد حجز فيه. يصل كا البلدة مع بداية نزول الثلج («كارز» تعني بالتركية ثلج) ولانه لم يكن قادرا على مغادرة المدينة بسبب نزول الثلج، يقوم بالتسكع في شوارع المدينة الخالية التي تلاحقها اشباح من عاشوا فيها وامجادهم، وما تبقى من معمار الامبراطورية العثمانية، ويمر على كنيسة ارمنية مهجورة كعلامة عما حدث للارمن، وهناك صور اتاتورك «أبي الحداثة التركية» الذي منع الحجاب من ضمن ما منع. تخفي «كا» خلف قناع الصحافي يمنح الكاتب الحقيقي/ السارد فرصة لطرح العديد من الاسئلة، عن التاريخ وعبره، عن الحياء والملامة «اين وقع الخطأ؟ ومن المسؤول» وعن قلق الهوية والانتماء «من نحن؟».

يخلق باموك الاجواء اللاحقة في الرواية، والتي تجمع بين الهزل والتراجيديا لكي يتحدث عن عبث الاقدار، وارتداد الاحداث على ابطالها، ويعتمد على الحيل، والالغاز التي ينزع عنها قناع اللغز عند الاقتراب منها، المدن الكئيبة والمظلمة، فقدان الهوية، والمنفى الحقيقي للسارد، كلها مفردات واشكال سردية تحضر في كل

اورهان باموك

اعمال باموك، وهي ايضا جزء من فضاء العالم الروائي، ولكن في حالة الكاتب التركي فانه يخلق نفسه او يعرف نفسه من خلال السرد، فاللعبة الروائية هنا تشبه لعبة شهرزاد مع الملك القاتل شهريار فهي تخلق او تصنع نجاتها عبر تنويع السرد اليومي املا في عبور الازمة. «ثلج» وان كانت الرواية السابعة لباموك الا انها تظل جزءا من محاولة الكاتب تشكيل «بلده»، فـ«كا» المقتول هو صورة عن الماضي والحاضر الشائه، وكا المقتول/ باموك او تركيا لم يكن قادرا على سرد حياته بنفسه لانه ليس روائيا، ولهذا فعبر الرواية، التي تغوص في الماضي وقاع المدن العثمانية القديمة، وتتجول في البلدات والكتل الاسمنتية يبرز تاريخ او صورة تركيا المعاصرة. وولادة تركيا من داخل السرد هي مهمة عسيرة لان سكان المدن يقولون لكا «لا لانه لا احد يفهمنا عن بعد»، ولكن هذا هو التحدي الذي دفع باموك (بالمناسبة اسم العائلة جاء من القطن ولونه الابيض نظرا لبياض بشرة ابناء العائلة)، للبحث عن التاريخ الحقيقي له ولمدينته اسطنبول في عمله الواقعي والجميل، «اسطنبول: ذكريات مدينة» وهو محاولة لاستكشاف تاريخه وتاريخ مدينته وصورتها في عيون ابنائها. الكتاب، الرسميون والهامشيون وصورتها في عيون الرحالة. وهي سيرة فائقة تجمع بين الترسيم في السرد والتصوير الفوتوغرافي، وتظهر صورة عن مدينة كانت «برج بابل» قال عنها الفرنسي فلوبير مرة انها ستعيش ما عاش الانسان وستكون عاصمة القلب، ولم يعش فلوبير لكي يرى كيف تتراجع المدينة بذاكرتها العثمانية في بداية القرن العشرين من كتب التاريخ وصور الزمان.

اسطنبول باموك هي تلك المدينة القديمة التي تعيش على استحياء مرة وهي المدينة التي كانت تنتشر في شوارعها واسواقها «بازاراتها» لغات العالم، واجمل ما سجل الرحالة الغربيون عن حياتها في ذلك الزمن «ليالي رمضان» «المقاهي بالحكواتيين»، «الاراجوز»، المقابر، والقصور، وخروج السلطان الاسبوعي لصلاة الجمعة، وفوق هذا، كما في حالة نرفال وغوتييه الفرنسيين، هناك الحمالون، وعربات الخيول، والنساء المحجبات، والحريم والقصور العالية المطلة على مضيق البسفور.

ومثل اي مدينة عانت من كوارث الطبيعة، واخطاء البشر، كانت الحرائق تندلع في بيوت النخبة العثمانية التي تبنى على الشاطئ. وباموك الباحث عن مدينته او صورته يعطي قارئه في هذا العمل جزءا من حياة عائلته الارستقراطية التي حملت ذكرياتها العثمانية، وعاشت مع الجمهورية كجزء من الارستقراطية التي استفادت من نموذج الوطنية القاسي. والمدينة التي يعيد تركيب هويتها وتشكيل صورتها هي مدينة تعيش في ظل فكرة التوزع، والكتابات التي يقدمها، خاصة كتابات اربعة من اشهر الكتاب الاتراك الذين لم يحظوا باهتمام في مرحلة بناء الدولة القومية، ظلت هامشية، واعتبرت من مؤرخي الزمن الاتاتوركي «رجعية»، وهؤلاء الكتاب هم: يحيى كمال، الشاعر، عبدالله شيناسي حيصار، كاتب المذكرات، الروائي أحمد حمدي تانبينار، وكاتب يوميات المدينة وريشاط اكرم كوتشو، وهم الكتاب الذين يصف حياتهم ورحلتهم في البحث عن قلب المدينة، في تماهيها مع التاريخ، الحداثة والواقع الجديد، بالكتاب الذين افرغوا قوالبهم الادبية التي تأثروا بها، في اوروبا في هوية المدينة، وبدلا من ان ينالوا الاحترام والتقدير، عاشوا احباطاتهم الخاصة.

ومثل مدينتهم عاش كل واحد من هؤلاء وحدته الخاصة وتركوا اعمالا غير مكتملة. والكاتب هنا او راوي تاريخ المدينة الماضي كان يعيش وحدته وانفصامه عن مدينته، ففي «بيوت باموك» كما يسميها التي كانت تحكمها جدة الكاتب، كانت هناك حياة موازية للحياة العادية التي تدور في الشوارع، وما يفصل هذه الحياة عن محيطها هي ان كل شيء فيها قائم على ما هو قادم من الغرب، المربيات غربيات، لا مكان للدين في الحياة الارستقراطية، الغرف تحولت الى متاحف حديثة، تحتفل بمستجدات الحداثة، بحيث اصبحت كما يقول غرفا بلا روح. في هذا العمل يمزج باموك بين ذكريات النشوء والولادة والتطور العقلي من خلال استعادته لصور الطفولة بالاسود والابيض، كما حملها عندما كان ينظر من شرفة منزلهم او من خلال رحلاتهم البحرية على البسفور. في اسطنبول يحاول اورهان كعادته الخروج من معطف «الاخر» الصغير والتماهي مع تاريخ المدينة الذي يعيد اكتشافه هذه المرة من خلال ما كتبه ابناؤها وما تبقى من عبق الماضي القديم.

اورهان باموك سواء في السرد الروائي، البحث عن تماه مع البطل، او تبادل الادوار، والسرد بالنيابة او الغوص في لغز البطل الذكوري ومتاهته، كان يقطع رحلة السرد بتشكيل حياته وبلده، وهو على الرغم من بعده عن الاضواء وحبه للعزلة في مكتبه الا انه يحظى كما علقت مرة الروائية مارغريت اتوود، بمكانة «نجم الروك»، او «الغورو/ المعلم»، والطبيب المشخص لعلل وادواء امته، والمجادل السياسي، ويقبل الاتراك على قراءة اعماله من اجل معرفة درجة وعدد دقات قلب الامة او قلوبهم. وهو معروف في العالم الغربي/ اوروبا حيث حصلت روايته السادسة «اسمي احمر» على جائزة «ايباك» الايرلندية عام 2003. في تلخيص لرحلته في تشخيص ادواء تركيا وامراضها وصورتها كتب يقول في مقدمة كتابه «اسطنبول» ان الكثير من كتاب الرواية المعروفين مثل كونراد ونابوكوف، ونايبول، اتقنوا السفر بين اللغات والحدود والثقافات وحتى الحضارات، وخيالهم تغذى من حس المنفى، وحياتهم اخذت الكثير ليس من التجذر بالمكان بل من الشعور بعدم الانتماء لجذور او لامكان وعلى خلاف هؤلاء لم يترك باموك مدينته، او حيه او بيته، بل كان عليه ان يعيش في نفس المكان ويحدق دائما بنفس المنظر. وكان هناك شوق او دعوة وحنين للعودة الى الجذور والحكايات التي سمعها واحتفظ بها في طفولته، مع الاعتراف بان الانسان، في مرحلة ما من حياته، قد يعود لاكتشاف وفحص، الظروف التي ولد فيها والحياة التي قطعها، وان كانت في اطار مكان وفضاء واحد.

نبذة عن حياته:

ولد اورهان باموك في 7 حزيران (يونيو) 1954 في عائلة ميسورة ذات ثقافة فرنسية.

واوقف دراسته في الهندسة المعمارية حين كان في الثالثة والعشرين من العمر لكي ينصرف الى الادب. وبعد سبعة اعوام نشر اول رواية له «جودت بك وابناؤه».

وتصاعدت حدة الانتقادات ضده بعد رفضه في عام 1998 قبول لقب «فنان دولة» بعدما اصبح آنذاك الكاتب الاول في تركيا مع تسجيله مبيعات قياسية.

وروايته السادسة «اسمي احمر» فتحت امامه ابواب الشهرة عالميا.

و«الكتاب الاسود» هي الرواية الاكثر رواجا له في تركيا.

وهو مطلق وله ابنة ويقيم في اسطنبول. ورغم الجدل الذي اثاره فانه لا يظهر الا نادرا في المناسبات العامة ويفضل مكتبه على اضواء منصات التلفزيون.

وسيتسلم باموك الجائزة البالغة قيمتها حوالى 1.4 مليون دولار في احتفال يقام في ستوكهولم في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) المقبل.

قضيته مع الدولة التركية:

في كانون الثاني (يناير) 2006 أسقطت محكمة تركية اتهامات جنائية ضد باموك باهانة الهوية التركية طبقا للمادة 301 من قانون العقوبات الجديد.

وكان باموك قد أثار حنق قوميين عندما قال لصحيفة سويسرية العام الماضي انه لا يجرؤ أحد في تركيا ان يذكر مقتل مليون ارمني اثناء الحرب العالمية الاولى او 30 الف كردي في العقود الاخيرة.

وقال باموك الذي يعتبر نفسه كاتبا يتطرق الى المواضيع السياسية «انني ادعم ترشيح تركيا للانضمام الى الاتحاد الاوروبي (...) لكن لا يمكنني القول لخصوم تركيا ليس من شأنكم ما اذا كانوا يحاكمونني ام لا. وفجأة اجد نفسي في وسط ازمة، انه عبء».

وباموك طويل القامة وعصبي ويتكلم بسرعة وبقوة، وهو اول كاتب في العالم الاسلامي دان علنا الفتوى التي صدرت بحق الكاتب سلمان رشدي كما ساند زميله التركي يشار كمال حين استدعي للمثول امام القضاء عام 1995.

اعماله:

الظلمة والنور (1979)
جودت وابناؤه (1982)
منزل الصمت (1983)
القلعة البيضاء (1985)
الكتاب الاسود (1990)
الحياة الجديدة (1994)
اسمي احمر (2000)
«ثلج» (2002)
«اسطنبول» (2003).

كتب عام 1992 نص فيلم «سر الوجه» وكتب عام 1999 مجموعة قصص «الالوان الاخرى».

حاز على عدد من الجوائز منها جائزة الاعلام التركي عام 1979، وجائزة أورهان كمال عن روايته «جودت وابناؤه» (1983)، وجائزة ايمباك عام 2003 عن روايته «اسمي احمر»، وجائزة السلام الالمانية في معرض فرانكفورت للكتاب (2005) ومنحته فرنسا جائزة عن روايته «ثلج» في نفس العام.

وترجمت الى حوالى عشرين لغة.

الفائزون بجائزة نوبل للآداب في السنوات الـ 15 الاخيرة:

في ما يلي اسماء الفائزين في السنوات الـ15 الماضية بجائزة نوبل للاداب التي منحتها الاكاديمية الملكية السويدية امس الخميس للروائي التركي اورهان باموك.

2006: اورهان باموك (تركيا)
2005: هارولد بينتر (بريطانيا)
2004: الفريدي يلينيك (النمسا)2003: جون ماكسويل كوتزي (جنوب افريقيا)2002: ايمري كرتيس (المجر)
2001: في.اس. نايبول (بريطانيا)
2000: غاو كسينجيان (فرنسا/ الصين)1999: غونتر غراس (المانيا)
1998: جوزيه ساراماغو (البرتغال)
1997: داريو فو (ايطاليا)
1996: فيسلافا جيمبورسكا (بولندا)1995: شيموس هيني (ايرلندا)
1994: كينزابورو اوي (اليابان)
1993 توني موريسون (الولايات المتحدة)
1992: ديريك والكوت (سانتا لوتشيا).

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

سعدي يوسف

في البحر الكاريبي، في يومٍ ما...

في البحر الكاريبي ...
بين جامايكا، وهاييتي، وبَربادوسَ،
وفي قَمْرة قُرصانِ الملكِ
الْتَمَ ثلاثةُ أوباش :
أولُهم ـ قرصانُ الملكِ الإسباني فيليب الثاني (أميرالٌ في الأسطول الملكي)
ثانيهم ـ قرصانُ إليزابَث الأولى، فرانسِسْ دْرَيك
ثالثُهم ـ قرصانٌ أبحرَ من مرسيليا... ذئبَ بحارٍ حراً؛
.....
.....
.....
بَسَطَ الأميرالُ خرائطَهُ
(عبدٌ أسودُ في بدلةِ ليلٍ بيضاءَ موشاةٍ ذهباً أبعدَ أقداحَ الخمر)
قالَ الأميرالُ: البحرُ الكاريبي بُحَيرتُنا،
ذهباً
وعبيداً
وثماراً...
لكن سفائننا، أحياناً تتصادمُ. ليست كلُ رياحِ
الكاريبي مواتيةً، ولا كلُ قباطنةِ
السفُنِ اللائي تُبحرُ عبرَ موانيءِ هذا البحرِ
مسيحيينَ تُقاةً. أنتم ملاحونَ
كما أنا ملاحٌ. فلْنتفاهَمْ! أوَليس الخيرُ لنا أن
نتقاسمَ؟ أعني: هل يمكنُ أن
نقتسمَ البحرَ؟ لفيليبَ الثُلثُ. لإليزابَثَ ثُلْثٌ.
والثلثُ الباقي لحُثالةِ أوروبا ...
***
قال له فْرانسِسْ دْرَيك:
حسناً!
لكنْ كيف نسمي البحرَ ثلاثةَ أسماءٍ؟ كيفَ يَبِينُ
مُكلأً هذا، ومُكلأً ذاكَ؟
ومَن سوف يُهيىءُ للبحارة خمراً ونساءً؟ مَن
سيُمَسِدُنا، ويُقَبِلُ أرجُلَنا قَبلَ
الأيدي؟ مَن سوف يُجَندِلُ حمالينَ ونخاسينَ لنا؟
هل سنُسمي الأقسام؟
***
كان الأميرالُ أعدَ لكل سؤالٍ عدتَه.
قالَ: القسمُ الأولُ سوف يسمى كُورديولان، أي من كُورديالتي Cordiality
والقسمُ الثاني سيُسمَى سنيستان، أي من Sun & Stance. وقفة الشمس.
أما القسمُ الثالثُ فالأفضلُ أن يدْعى شيئستان، أي من Shy & Stance
والمعنى: وقفةُ الخجل.
(التأويلُ باللغة العربية من المخطوطِ الأصلِ قام به، مشكوراً، الشاعرُ
العراقي المقيمُ في لندن، سعدي يوسف).
***
أخرجَ أولُهم خاتمَهُ.
أخرجَ ثانيهم خاتمَه.
أخرجَ ثالثُهم خاتمَهُ.
خُتِمَ الأمرُ:
لقد قسموا البحرَ ثلاثةَ أقسامٍ.
والعبدُ الأسودُ في بدلته البيضاءِ الذهبية عاد ليملأ أقداحاً ذهباً...
***
كان الليلُ الكاريبيُ مليئاً بالأقمارِ
وبالأسماكِ الفضةِ
والقيثاراتِ
وكانت قَمْرَةُ قرصانِ فيليب الثاني الخضراءُ
متعتَعةً.
***
نامَ ثلاثتُهم في الفجرِ...
***
لم يعرفْ حتى البحارةُ كيف جرى الأمرُ...
البحرُ الكاريبيُ تلاشى مثل سرابٍ،
وسفينتُهم تُنقلبُ، سادرةً، هائجةً، نحو مثلث برمودا...

لندن 09,10,2006

تعليق على مقال صبحي حديدي حول: «محمود درويش وقصيدة النثر»:

الشعر يزداد حسنا مع الوزن!

أحمد بنميمون*

■ أنطلق في تعليقي من تقدير خاص لكل ما يأتي به الناقد الحصيف صبحي حديدي فلو أردنا مثلا تقديم ترتيب حسب أهمية وجمالية الأسلوب وعمق التحليل ودقة الملاحظة، في عمود «هواء طلق» لقلنا إن الأول بلا منازع بين كتاب هذا العمود إلياس خوري ليأتي بعده حديدي ثم القمحاوي فأبو شاور، ليتنازع الرتبة الباقية عناية جابر وأمجد ناصر.

أما بخصوص عمود اليوم، فالمسألة/ الإشكالية يا عزيزي صبحي ليست في (تقريب المسافة بين وزن ونثر في الكتابة الشعرية) بل في كون التسميتين / المصطلحين: قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر ليستا صحيحتين، أو بالأحرى دقيقتين، لإطلاق قصيدة التفعيلة على كل ما كان موزونا من الشعر الذي غادر نظام الشطرين على مذهب نازك الملائكة الذي اقترحته في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) وإطلاق (قصيدة النثر) على كل شعر أرسل بلا وزن، ويعلم النقاد أن لقصيدة النثر شروطا لم تخلص لها كتابة شعراء يجهلون الوزن، ولم ينطلقوا في رفضه من تجريبه أولا، على مبدأ من يقول (اعرف القاعدة ثم حطمها) فلذلك جاءت كتابة كثير من «قصائد النثر» بلا ملامح أصيلة، فلا هي بالغربية ولا بالعربية، بل صدق من شبهها بالشعر المترجم. فلكي تكون كتابتنا الشعرية منتمية في منجزاتها إلى ثقافة الجديد يجب أن تقتل القديم... فهما. وبذلك ستستحق صفة التجاوز والتخطي والانتماء إلى المستقبل.

أيها العزيز الناقد ثاقب الملاحظة صبحي حديدي:

إن شعر/كتابة درويش اللذين حشدت أجمل التعبيرات لتصنع بها عنهما نصا كان من الممكن أن يكون جديرا بهما لو أنك ذهبت إلى الوقوف على حقيقتهما. فبين ما يصرح به درويش في حواراته، مما يحمل إصرارا على التمسك بالوزن ـ بالطبع ليس على طريقة العقاد أو مذهب صالح جودت ـ وبين ما يجامل به عددا لا يستهان به من جماهير قرائه، حول كتابة الشعر بالنثر، في تصريحاته نفسها. إن في ذلك ما ينفي هذا الذي تقرره، وأنت تترك حيادية الناقد وهدوءه تحتفي بهذا الذي تسميه(صيغة النص الشعري المفتوح) وكأني بك تستعجل خروج (أو بالأحرى إخراج) درويش من (الوزن إلى النثر)ممجدا بكيفية فيها كثير من الاستعطاف ـ ذلك الخروج الذي لا يزال في حدود الأمر المتمنى، لكن شاعرا في وزن درويش لا يهتم بتحريض على خروج أو ثورة يأتي من خارجه، ما لم ينبع من داخل تجربة ـ هي تجربته ـ جديرة بالمتابعة، فقد صرح الشاعر المبدع درويش بما معناه أنه لم يضق بالوزن بعد، فلماذا يضيق النقاد بشاعر وازن شهد أن الشعر إما أن يكون موزونا أو هو في أحسن حالاته (نثر جميل) وحسب المبدع أن يصل إلى الجمال من أية طرق، وبأية وسيلة، لو كنتم تعلمون ما أهمية الوصول إلى اجتراح الجمال، مهما كانت تلك الوسيلة، وازنة أو لا وزن لها، وتشهد عبقرية اللغة العربية بنحوها ومذاهب صرفها، أن الكتابة الشعرية العربية بوزن خير من أن تكون بدونه.

وما أكبر جناية النقد المحرض على النثر، في زمن نرى فيه أن التجارب الشعرية العربية الكبرى لا تأتي إلا وازنة موزونة بدءا من الشاعر الذي ألم ببتراثه خير إلمام: أدونيس، ولا جناح عليه إن تجاوزه أو دعى إلى تجاوزه، والشاعر العميق سعدي يوسف والشاعر الأجمل (محمود درويش) والشعراء الذين يعجزني وصفهم أحمد المجاطي ومحمد الخمار الكنوني ومحمد علي شمس الدين وحسن العبد الله وشوقي بزيع، بل وحتى يوسف الخال، وكثيرون وازنون حقا، لأنهم بمواهبهم العالية، فرقوا بين ما هو شعر وما هو نثر، أي أنهم فرقوا بين ما هو حق وما ليس بحق، وحسبهم أنهم وضعوا أمامنا تجارب أخضعت الكتابة الشعرية التي تركت نظام الشطرين لتتقبل البحور الشعرية الخليلية، غير واصمين الخليل بشيخوخة، بل أعادوا شبابه حين أدركوا عبقرية اللغة العربية التي كما تتمتع بقدرات اشتقاقية كبرى، تتمتع أوزان شعرها عند الموهوبين من أبنائها بالقدرة على التشكل وأمامكم الأمثلة الناطقة في ما يكتبه سعدي يوسف على بحر الطويل وبحر البسيط،كما في قصيدته التي نشرها في جريدة القدس العربي ص. 10بتاريخ: الثلاثاء 18 كانون الثاني (يناير) 2005

يوماً فيومين تعوي الريح والمطر الـ...
كبير ذو القطرات المشعات كحبْ...
بات المسابح والزعرور يطرق شب...
باكي وينهمرُ
مغلغلاً تحت جلدي بردهُ
أهي الرطوبة أم أن العظام غدتْ
قبل الرميم رميما أم هو القدرُ
أن يستديم مع الأرواح مضطربي
ومستقري أقصى الغابة ابتعدي
عني إذن يا فتاة البحر واتّركي
على الملاءات عرفا منك أعرفهُ
مضوّعا ضائعا بين الجدار وبا
ب الجنة... الشجرُ

وقد وزعت الأبيات حسب ما يمليه قانون البيت ذي الشطرين لبيان أن القصيدة التي نشرها الشاعر بتوزيع يراعي وقفات غير عروضية، لا يصح أن يقال عنها إنها من شعر التفعيلة، والأمر ينطبق على قصائد كثيرة لهذا الشاعر استغل فيها الإمكانات الإيقاعية الغنية للأبحر الشعرية العروضية الخليلية، وما كتبه أدونيس منذ (وقت بين الرماد والورد) في (مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف):

وجه يافا طفل /هل الشجر الذابل يزهو؟ هل تدخل الأرض في صورة عذراء / من هناك يرج الشرق؟جاء العصف الجميل ولم يأت الخراب الجميل / صوت شريد...

وقبلها في (المسرح والمرايا) في مقاطع كثيرة منها هذا المقطع:

مرآة لمعاوية:
شعْرة تقرأ الرياح وتبني
ملكك في تفجّر البركانِ
في زفير الأمواجِ
والزمن الهائم بين الإعصار والربانِ
(أدونيس: الأعمال الكاملة ص. 483 المجلد الثاني ـ ط. 2 تشرين الأول 1972 ـ دار العودة)

أفبعد هذا، يبقى من حق أي ناقد تقسيم الشعر إلى قول شعري تفعيلي (إلا في حدود القصائد التي تلتزم وحدة التفعيلة، وقول شعري نثري؟ إلا أننا نعجب غاية الإعجاب بهذا المعنى الذي تضمنه أحد أبيات البردة للبوصيري:

والدر يزداد حسنا وهو منتظمٌ وليس ينقص قدرا غير منتظمِ

فإنَ كان للدر نفس القدر في الحلتين إلا أنه يكون أجمل وأكثر حسنا وهو منتظم، وكذلك الشعر في ما نرى يزداد حسنا وروعة مع الوزن، والعكس غير صحيح، فما يضيع منه حين يكون بغير وزن لا يستطيع أن يعوضه بالرؤيا، في ما أصبح يسمى بشعر الرؤيا، إذ ما قول النقاد إذا كانت الرؤيا، وكل المعاني التخييلية،توجد في الشعر حتى مع الوزن . وأخيرا، كل الشكر والتقدير لمقالك الرائع الذي فجر بين يدي هذه الملاحظات السريعة التي لا تزال تحتاج إلى توضيح وتشريح، مع أمل ألا تكون قد وقعت أو قاربت أي تجريح.

الاثنين 09/10/2006

* شاعر من المغرب